المحاضرة الرابعة عشر: مسألة خلق الأفعال

مسألة خلق الأفعال عند المعتزلة وموقف الاشاعرة منها (ج2):

وعندما يستدل المعتزلة بآيات تنص على نفي إرادة الله ﷻ للقبح والكفر، فإن غايتهم في ذلك تأكيد خيريته من جهة، وتحميل الإنسان مسؤولية فعله من جهة أخرى، طالما أنه قادر، مريد، وخالق لأفعاله. فالآية ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، فالله ﷻ لا يريد من عباده إلاّ العبادة والطاعة فقط. فاللام الواردة في الآية كما يرى القاضي عبد الجبار تفيد الغرض، ويسميها اللغويون لام كي[2]، والدليل على ذلك أنهم لا يفرقون بين قول القائل: دخلت بغداد لطلب العلم، وبين قوله دخلت وغرضي طلب العلم. فلو لم تكن هذه الأفعال من طرف الإنسان فلا معنى لهذا الكلام كما قال القاضي عبد الجبار [3]، وما يؤكد ويؤيد رأي القاضي عبد الجبار، هو صاحب "الكشّاف" "الزمخشري"(1074، 1143) بقوله: « إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدا لها ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم»[4].

أما الآيات التي يستدل بها الأشاعرة في ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله المطلقة التي تشمل عندهم كفر الكافر، وإيمان المؤمن، وطاعة المطيع، وعصيان العاصي، كقوله ﷻ : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[5]، وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[6] و﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[7] و﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[8] وقال ﷻ أيضا: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا

---

[1] سورة الذاريات، الآية56.

[2] غير أنّ الأشاعرة يؤولون الآية تأويلاً مخالفا حتى تتماشى وأصولهم، ولذلك يطرح "الباقلاني" تأويلات لهذه الآية « أحدها أنه أراد بعض الجن والإنس، والذي يدل على صحة ذلك أنّ كثيرا من الجن والإنس يموت قبل أن يبلغ حد التكليف والعبادة، وصار هذا كقوله: ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إنشاء الله﴾"سورة الفتح، الآية27."، وأراد البعض لا الكل لأن منهم من مات قبل الدخول»"الباقلاني"، الانصاف، ص ص151-152. يعني أنّ الآية لا تعم جميع المكلفين، بل بعضهم فقط. وعليه فالخلاف بين المعتزلة والأشاعرة يكمن في معنى اللامين في الآيتين، فاللام في الآية التي يستدل بها المعتزلة هي لام الغرض ومعناها "لكي" أما اللام في دليل الأشاعرة فهي لام العاقبة." ناصر حامد أبو زيد، الاتجاه العقلي في التفسير، دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة، ص222".

[3] القاضي عبد الجبار،شرح الأصول الخمسة، تح عبد الكريم عثمان، ص ص362-363.

[4] الزمخشري، الكشاف، ج4، ص21.

[5] سورة التكوير، الآية 29.

[6] سورة يونس، الآية99.

6 سورة السجدة، الآية13.

[8] سورة الأنعام، الآية112.

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[9] هنا يخبرنا الله أنه لو لم يرد القتال لم يكن وأن ما أراد من ذلك قد فعله[10]. وبما أن المعتزلة يرفضون ربط مشيئة الله بمشيئة عباده، لأنهم يفرقون بين إرادة الله لفعل ذاته، وبين إرادته لفعل غيره، والتفرقة في هذا الوجه الأخير بين مايريده الله من عباده على سبيل القسر والإلجاء، وما يريده على سبيل الطوع والاختيار. ولذلك أوَّل المعتزلة كل الآيات التي استدل بها الأشاعرة والتي تربط مشيئته ﷻ بمشيئة عباده، ومنه يرى القاضي عبد الجبار أنَّ معنى المشيئة في كل الآيات السابقة الذكر هي مشيئة الإلجاء و الاضطرار. وفي هذا الصدد يقول: « فإنّ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾[11] في ظاهره ما يبين ما قلناه، لأنه نسب اجتماعهم إليه تعالى فلابد من أن يكون ما اجتمعوا عليه – أو ما أوجبه – من قبله ولا يكون إلاّ بالإلجاء»[12]. ويستعين المعتزلة على تأويل المشيئة بالإلجاء من خلال سياق الآيات ففي آخر الآية:﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[13]نجد ما يدل على تأويل المشيئة بالإلجاء، قوله ﷻ:﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[14]، فلولا أن المراد بالكلام طريقة الإكراه لم يكن لهذا الكلام معنى[15].

وقد استدل المعتزلة بحجج نقلية على أنّ الإنسان يتصف بصفة الخلق من خلال عدة آيات كقوله ﷻ:﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[16]، وقوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[17]، وكرد على الخصوم وهم أهل السنة والأشاعرة، الذين تعلقوا بالآيات: ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾[18]، والآية: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾[19]، لكي ينفوا صفة الخلق على الإنسان، رد المعتزلة أنّ هذا لا يصح، فهو كلام من جهة العبارة، فأما من جهة المعنى فالإنسان قادر على إحداث الشيء[20]. وأنّ انصراف لفظ "الخالق" إلى الله ﷻ دون سواه إنما هو من جهة

---

[9] سورة البقرة، الآية253.

[10] الاشعري، اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، نشر وتصحيح الأب ريتشارد يوسف مكارثي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت،"د–ط" 1953، ص31.

[11] سورة الأنعام، الآية35.

[12] القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، اللطف، تح أبو العلاء عفيفي، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة مصر، 1965، ج13، ص218.

[13] سورة يونس، الآية99.

[14] سورة يونس، الآية99.

[15] القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، اللطف، تح أبو العلاء عفيفي، ج13، ص218

[16] سورة العنكبوت، الآية17.

[17] سورة المؤمنون، الآية14.

[18] سورة فاطر، الآية3.

[19] سورة النحل، الآية17.

[20] محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، دار الشروق، ط2، 1988، ص72.

التعارف كما لا يطلق قولنا "رب" إلاّ عليه، لكن هذا اللفظ يمكن أن يطلق على غيره[21]، وإذا كان العبد يحدث الفعل، كما أنه تعالى يحدث ذلك، وجب أن يوصف العبد بهذا الوصف. وإذا ثبت ذلك، وكان عندهم –أي خصوم المعتزلة– أن الحركة المكتسبة مخلوقة، وجب أن يكون لها خالق[22]. وخالقها قد يكون الإنسان، كما أن خالق الحركة الضرورية هو الله تعالى[23].

ومادام الإنسان خالقا لأفعاله، راحت المعتزلة تقدم أدلة النفي التي تنفي أن يكون الله ﷻ خلق أفعال البشر، وذلك لأنها أدلة ينازعهم فيها الأشاعرة على الخصوص ولا يسلمون لهم بها، ومن هذه الأدلة قوله تعالى: ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُت﴾[24]، وهذا يعني أنه إذا كان ينفي عن نفسه التفاوت، فإنّ كل تفاوت حاصل هو ليس من خلقه، وأفعال العباد تتفاوت بين الحسن والقبيح، ولهذا لا يصح إثباتها لله ﷻ طالما انه ينفي التفاوت عن خلقه، والمقصود بنفي التفاوت عنه حسب المعتزلة هو نفي التفاوت في باب الحكمة، وليس نفيها في المخلوقات أو في صفاته ﷻ، لأنّ في خلقة المخلوقات ما لا يخفى، « فلو كان في أفعاله شيءٌ قبيحٌ لفسد التدبير، ولم يثق المكلف بوعدٍ ولا وعيدٍ، وذلك يُخرِجُ كل أفعاله من أن تكون نعمة»[25]. والتفاوت على حد تعبير "الزمخشري" يعني التناقض أو الاضطراب[26]. لكن هذا التناقض والاضطراب صفة واقعة للإنسان، وليست كذلك بالنسبة لله ﷻ لأنه تمدح ذاته بصفات تبدو ظاهريا أنها متناقضة كوصف ذاته بالرحمة والجبروت، ولكنهما ليسا كذلك في باب الحكمة، ومن هنا نستنتج أنّ كل أفعال الله تجري على نسق من الحكمة لا تفاوت فيها، عكس ما هو لدى الإنسان، ومن ثمة لا يمكن أن تكون أفعال الإنسان من صنع الله[27].

لم يكن المعتزلة وحدهم في الساحة الفكرية الإسلامية، إذ قوبلت أفكارهم بالرفض والدحض في غالبيتها من طرف خصومهم خاصة الأشاعرة بزعامة "أبي حسن الأشعري"، الذي كان معتزليا في بداية حياته، وكانت فكرة الصلاح و الأصلح التي لا تنفصل عن مسألة خلق أفعال الإنسان هي السبب المباشر لتأسيسه الفرقة الأشعرية[28]، ولذلك إذا كان المعتزلة يقولون بأن أفعال العبد من خلقه وأنه مسؤول عنها، فإن الأشاعرة تقول

---

[21] فنقول مثلاً: رب البت، رب العمل... .

[22] عملا بمبدأ السببية الذي ينص على أن كل موجود في الوجود له سبب يتوقف عليه قبل وجوده.

[23] محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، ص72.

[24] سورة الملك، الآية3.

[25] القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، المخلوق، ج8، ص ص257-258.

[26] الزمخشري، الكشاف، ج4، ص134.

[27] القاضي عبد الجبار، متشابه القرآن، تح عدنان محمد زرزور، دار التراث، القاهرة، ط1، 1966 ص661.

[28] من خلال المناقشة المشهورة بينه وبين أستاذه "الجبّائي" عن حكم الزاهد والكافر والطفل الصغير"أبو حامد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص115.

بالكسب، أي أنّ الأفعال مخلوقة من الله منسوبة إلى العبد، ومنه فقد اتهم الأشاعرة المعتزلة بأنهم أثبتوا خالقين[29]، أي أن وجود قدرة الإنسان بجانب قدرة الله يعني تعدد الفاعلين والفاعل واحد. كما أنّ المعتزلة وإن نجحوا في إثبات التوحيد بإنكار الصفة، فإنهم وفق منطلقاتهم، أنّ التوحيد والعدل متضايفان، لا يفهم أحدهما إلاّ من خلال الآخر، ومادام الأمر كذلك، فإنهم قد هدّموا التوحيد عندما أثبتوا أنّ الله غير واحد في خلق الأفعال بل يشاركه الإنسان في الفعل الكوني. وإن سعى المعتزلة في أصل التوحيد إلى نفي الصفات عن الله ﷻ لتنزيهه عن مشابهة مخلوقاته، فإنهم أيضا في أصل العدل نفوا عنه القبح، والفساد، والظلم، لكي ينزهوه ولا يكون شبيها لعباده في هذه الأفعال، ويكون بذلك منفردا بخيريته، وفي ذاتيته[30].

ولم تكن الغلبة دائما للمعتزلة في تأويل الآيات أو الأحاديث، إذْ أنها أحيانا تتعسف في المغالاة في إخراج النصوص من سياقها، ليتحول النص الديني إلى دلالة عقلية نظرية، ومثال ذلك – على سبيل الذكر لا الحصر– محاولة تأويل القاضي عبد الجبار للآية: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[31] نفى القاضي عبد الجبار أن يكون ليّ ألسنتهم من عند الله، في حين يرى أنهم حرفوا وصف الرسولﷺ وأوهموا السفيه منهم أنه من كتابهم، ولذلك يظل القاضي عبد الجبار بعيدا عن جو الآية[32].

وخلاصة ما نصل إليه في مسألة خلق أفعال الإنسان هو أن المعتزلة جعلوها أساسا لكل أصولهم، ولجأوا لتأكيد آرائهم إلى أدلة عقلية ونقلية، وكان تركيزي على النقلية منها لأبقى ضمن سياق البحث. فكانوا يعتمدون على الآيات والأحاديث التي توافق أفكارهم ويؤولونها أو يرفضونها إذا كانت تخالفها.

ومهما يكن من حكم على المعتزلة في هذه المسألة، فإننا لا نشك في إخلاصها في الدفاع عن توحيد الله وعدله، الشيء الذي تطلب منهم الدفاع عن الحرية الإنسانية، وهم بذلك لم يكونوا فلاسفة أنوار المسلمين فحسب بل أكبر من ذلك لأن التنوير الغربي استبدل الدين بالعقل وأقام قطيعة مع التراث، في حين أن المعتزلة كان تنويرهم إلهيا،لأن الله والقرآن والرسولﷺ أنوار تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا، سعى المعتزلة إلى جعله مستنيرا بالعقل لإضاءة النقل، و بذلك سعوا إلى تحقيق غرضهم وهو الدفاع عن دينهم، وهي الحقيقة التي لا يستطيع أحد أن ينكرها عنهم.

---

[29] الاسفراييني طاهر بن محمد، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق، كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1983. ص48.

[30] علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، ص607.

[31] سورة آل عمران، الآية78.

[32] ناصر حامد أبو زيد، الاتجاه العقلي في التفسير، دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة، ص ص238-239.